طرائف من العصر المماليكي :

أساليب العامة في الشعر الفصيح

للاســـتاذ محمود رزق سليم

نشأ الشعر العربي أول ما نشأ فصيحاً . وعاش فصيحاً زمناً طويلا بعد نشأته . لم تزايله فصاحته ولم تتحول عنه عربيته ، حتى اختلط العرب بالعجم وبخاصة في عصر بني العباس . فأدى هذا الاختلاط إلى فساد السليقة العربية وانحراف اللسان الفصيح . وتكونت اللغة العامية ، وتغايرت طرق أداء المعاني فيها عن مأثور العربية . وألف العرب التخاطب بها ، وتناقل المعنى بأساليبها .

ومنذ ذلك الحين أخذ كثيرون من أهل الغيرة على لسان القرآن والحديث يكافحون سيلها ويدرءون خطرها . ولكن جرت الحوادث دون غايتهم ، وتتابعت الأيام دون ما أملوا . وعاشت العامية ، ولا تزال تعيش ، طاغية بين جماهير الأمم العربية . إلا أن لغة العلم والأدب والشعر ، ظلت بمنأى عن العامية إلى حدما ؛ غير أنها لم تسلم جملة من رذاذ منها يصيبها ، ومن رشاش ينتثر عليها .

ونعني بالأساليب العامية ، الطرق الكلامية والعبارات التي يؤدي بها العامة مضمون أفكارهم ومتبادر معانيهم بدون حرص منهم على تحري قواعد العربية في نحوها وصرفها .

والأساليب العامية بهذا ، تفترق افتراقا ما ، عن أساليب العامة . ولبيان ذلك نقول : إن في كل أمة من أمم الأرض غابرها وحاضرها ، طبقتين متميزتين ، كما تجمع بينهما جوامع عدة ، تفرق بينهما فوارق شتى ، وهما العامة والخاصة .

أما الخاصة فهي الطبقة النابهة ، التي سلكت إلى الثقافة مسالكها ، وبلغت من التعليم حظاً موفوراً ، وأوتيت بجانب ذلك ذكاء في القريحة ، ورهافة في الحس ، وطلاقة في اللسان ، وقوة على التعبير . فيقع خاطرها على الفريد من المعنى ، والجديد من الرأي ، أو يسمو إلى الرائع من الصور ، والبديع من الأخيلة ، فيسجل الشوارد ، ويقيد الأوابد . وهي بذلك وبعد ذلك ، تنشر نوازعها على العامة ، فتؤثر أثرها الجليل في حياتهم وحياة الأمة جمعاء . فتقتعد الخاصة بذلك ، منها مقعد القيادة والتوجيه .

والخاصة لها أساليبها وطرق أدائها للمعاني ، بل لها مفرداتها بل ومصطلحاتها ، ولغتها هذه أوسع من لغة العامة نطاقاً وأبعد آفاقا ، وأقدر على إحكام النظرة وتحديد الفكرة ، وهذه أوصافها في جملتها لا في تفصيلها .

أما العامة فهي من عدا الخاصة ، من عمال وصناع وزراع وتجار ومحترفين حرفاً لا تنزع إلى إنتاج فكري أو أدبي . بل هي حرف آلية تجري على سنن من التقليد .

وللعامة كذلك أساليبها وطرق أدائها للمعاني ، بل ولها مفرداتها ومصطلحاتها . غير أن لغتها هذه أضيق أفقاً من لغة الخاصة ، وأضعف منها قدرة — في جملتها — على التعبير عن رقيق المعاني وعميق الأفكار . ولا تخلو من كلمة جامعة ، وحكمة بارعة ، ومثل مضروب ، وقولة مأثورة ، وطرفة نادرة . ونستطيع أن نحدد « لغة العامة » بأنها اللغة الشعبية الدائرة على الألسن ، التي ابتذلت عباراتها ومفرداتها — في نظر الخواص — بكثرة الاستعمال .

وفي الأوساط العربية ، كانت لغة الخاصة ولغة العامة فصيحتين معربتين ، قبل أن تنحرف العربية في التخاطب وقبل أن تتولد العامية . فلما انحرف لسان التخاطب — كما ذكرنا — وتولدت العامية ، زادت الفرقة بين لغة الخاصة ولغة العامة . وزادت الألفة بين العامة والأساليب العامية .

والآن نرى أن لغة العامة تطغى عليها الأساليب العامية والمفردات العامية ، المشوهة بالتحريف واللحن وترك الإعراب وبالدخيل ، ونحو ذلك . غير أنها في جوهرها عربية . وفي جملتها — كما أشرنا — كثير من الأمثال والحكم والكلمات الجامعة والعبارات الرائعة والتشبيهات السائغة والكنايات اللطيفة ونحو ذلك .

والخاصة لا تقيم دائماً على لغتها بل كثيراً ما تصطنع لغة العامة في حديثها كلما عاشت كما يعيش سائر الناس وكلما استراحت من أداء رسالتها في علم أو أدب .

وإزاء هذا يحرص العلماء والأدباء حينما يتصدون للتأليف

والنظم ، على أن يهجروا لغة العامة ، ويتناسوا مبتذلاتها ، ليسلم للفهم رونقها وبهاؤها ، ويبقى لها سموها ومقدرتها وجلالها . غير أنهم — وهم من الشعب وإلى الشعب — لايستطيعون مهما حرصوا ، أن يزيحوا عن كاهلهم نيرها جملة . بل تبقى منها فى لسانهم لوثة ، تتردد نفثاتها بين الآن والآن ، بوعى أو بغير وعى .

هكذا كان حال شعراء العصر المملوكى حينما يتصدون لنظم الشعر . كانت أساليب العامة يتردد صداها بين الفينة والفينة فيما ينظمون . وفى العصر المذكور كان سيل العجمة طاغيا على البيئات العربية ، بسبب شدة اختلاط العرب بغيرهم من الأجناس ، وبخاصة الجنس التركى الذى كان له حينذاك الحكم والسلطان . فكان لذلك أثره فى سيادة العامية ، فلا غرابة أن رأينا منها لوثة فى ألسنة الشعراء . بل الغرابة فى ألا تكون . والشعراء أقرب أنواع الأدباء إلى الشعب ، وأدقهم حسّا به ، وأعمقهم إدراكا لما فى بيئاته وأشدهم تأثراً بما فى محيطاته .

غير أن بعض النقاد فى العصر الحديث ينعى على هؤلاء الشعراء ما تهاووا إليه من أساليب العامة ، ويتخذ ذلك ذريعة إلى وصفهم بضعف ثقافتهم وقلة بضاعتهم من العربية . وهذا — فى رأينا — حكم جائر . فاصطناع الأديب للغة العامة ، قد ينقص من أدبه باعتباره أديبا عربياً ، ولكنه لاينبغى أن يتخذ دليلا على ضعف ثقافته أو قلة بضاعته . والشاعر المثقف تنسل إلى شعره أساليب العامة دون وعى منه ولوكان حريصاً . وذلك لألفتها وجريانها على لسانه فى حياته العادية ؛ والأدلة كثيرة فى كافة عصور الأدب .

وصحيح أن بعض شعراء العصر المملوكى كان أمياً ، ولكنه نظم بالعربية الفصيحة وهذه مفخرة للعصر ، وصحيح كذلك — بجانب هذا — أن كثيراً من شعرائه ، وممن اندست أساليب العامة إلى شعرهم ، كانوا على جانب عظيم من الثقافة ، ومؤلفاتهم خير شاهد على ذلك ، كابن عبد الظاهر وابن فضل الله والعسقلانى وابن نباتة وابن الوردى والصفدى وابن حجة .

وإذا كانت أساليب العامة قد أخذت سبيلها إلى ألسنتهم ، وظهرت أطيافها فى أبياتهم بدافع الاختلاط والتأثر بحياة العامة ولغتهم ، فهناك دوافع أخرى لا نستطيع أن نتجاهلها أو ننساها ومنها الرغبة فى الإيضاح ، وحب الدعابة والتفكه ، والاستجابة لداعى البديع ، فقد تحلو التورية أو يجمل الجناس ، إذا روعى الاستعمال العامى . ومن هنا نفهم أن بعض الشعراء تعمد هذا الاستعمال لغاية من الغايات .

وليس معنى استعمال الأساليب العامية أن تظل عامية محرفة أو غير معربة ، بل كثيراً ما تجرى مجرى الفصيحة . وقد ينقذها اصطناع الشاعر لها مما ترديت فيه من الابتذال .

ونحن نعرض هنا على أنظار القارئين نماذج من شعر العصر المملوكى ، ذاكرين أن دراسة مافيها من أساليب العامة تعمل على ربط لغتنا بلغة أسلافنا ، وتعين على فهم مدى تطور أساليبنا العامية فضلا عما تقدمه من الأدلة على سمو الروح الأدبية وأصالتها لدى شعراء العصر المذكور ؛ فمن ذلك ما يلى :

نعلم أن بائعى « الكتاكيت » ينادون فيقولون : « يا ملاح الملاح » . ويبدو أن هذا النداء كان معروفاً فى عصر المماليك ومستعملا فى نفس المعنى . وقد كان أحد نواب الشافعية ، وهو بدر الدين الدميرى محمد بن يوسف المتوفى عام ٨٨٧ هـ ، معروفاً بين الناس بـ « كتكوت » فاتخذ بعضهم ذلك وسيلة إلى مداعبته فقال فيه الشاعر على بن برد بك موريا بملاح الملاح وفيه دلالة على ما ذكرنا قال .

إن الدميرى صديقى فلا أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من ملاح الملاح

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر :

يارب كأس صرت من شربها من بعد رشفى ريق معشوقى
ملتهب الأحشاء ناراً لأن شربتها منه على الريق

وفى الشطر الأخير تعبير عامى ، ويتضمن تورية لطيفة . فقد ورى بعبارته عن المعنى المقصود ، وهو أنه شرب الكأس بعد رشف ريق معشوقه ، وكان الريق أحلى وأجل إطفاء لنار أحشائه من الكأس .

وقال جمال الدين بن نباتة فى الشكوى :

قل عونى على الزمان فأصبحت صبوراً على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى

وفى الشطر الأخير عبارة عامية تدل على ضعف الحيلة ، وفى البيت كله لف ونشر . وفيه إكتفاء .

وقال شمس الدين بن دانيال الموصلي يشكو حظه كذلك ، ويذكر أنه باع حماره وعبده معا ، فأصبح بذلك فقيراً لا يملك شروى نقير ولا قطمير . وفى بيته الثانى — مع الاكتفاء ومع اللف والنشر المرتب — مجانة يفطن لها الأديب . قال :

ما عاينت عيناي فى عطلتى أقل من حظى ومن بختى
قد بعت عبدى وحمارى وقد أصبحت لافوق ولا تحتى

وقال زين الدين عمر بن الوردى متغزلا فى تاجر مليح :

وتاجر شاهدت عشاقه والحرب فيما بينهم سائر
قال : علام اقتتلوا هكذا قلت : على عينك ياتاجر

والمعنى العامى للعبارة الأخيرة « بصراحة وعلى المكشوف » فورى به عن المعنى الذى يريده وهو أنهم اقتتلوا بسبب ما فى عينه من فتنة وسحر . ولا تزال العبارة مستعملة فى عاميتنا بنفس المعنى الأول .

وقال صلاح الدين الصفدى يصف جرة خمر :

وجرة أظهروها والراح فيها كمينة
شممت طينة فيها فرحت سكران طينة

وقال ابن الوردى فى لاميته المشهورة :

واهجر الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى فى جنون من عقل

وشاهدنا فى عبارة « إن كنت فتى » وهى ترادف الاستعمال الشائع الآن وهو « إن كنت جدع » أى إن كنت شهما . وبدهى أن معنى فتى لا يفيد لغة معنى شهم . وقال ناصر الدين بن النقيب يشكو نحول جسده :

يقول جسمى لنحولى وقد أفرط بى فرط ضنى واكتئاب
فملت بى ياسقم ما لم يكن يلبس والله عليه الثياب

وتفيد العبارة الأخير بمعناها العامى الذى لا تزال شائعاً حتى اليوم ، « أنه لا يطاق » ، وورى بها عن شدة نحول جسمه حتى إنه لم يعد يصلح لثياب يرتديها .

ومن لطيف توريات ابن نباتة بالأسلوب العامى ، قوله متغزلا .

سألت النقا والغصن يحكى لنا قارى
روادف أو أعطاف من زاد صدها
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها وقال قضيب البان ما أنا قدها

وشاهدنا فى العبارتين « ما أنا حملها » ، « ما أنا قدها » .

وقال صفى الدين الحلى فى معرض التغزل واصفا الصباح :

والصبح قد أخلقت ثوب الدجى يده
وليته جاء للعشاق بالخلاق

وهجا ابن أبى حجلة المغربى ، الصلاح الصفدى فقال :

إن ابن أبيك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا فراح كلامه فى الريح

وقال سراج الدين الوراق بتغزل موريا :

ومهفهف عنى يميل ولم يمل يوماً إلى فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل إلى ياغصن النقا
فأجاب كيف وأنت من جهة الهوا

وقال برهان الدين القيراطى :

يا هاجرا أو قمسى هجره وصده فى حالة صعبة
أخذت قلبي بالتجنى وما تركت لى منه ولا حبة

وفى البيتين عبارات عامية ، وفى الثانى تورية فى « حبه » .

وقال ناصر الدين بن النقيب :

ودعتهم ثم انثنيت بحسرة تركت معالم معهدى كالبلقع
ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل
رجعت عداك المبغضون كرجعى

وشاهدنا فى الشطر الأخير ، وترادف عبارته العبارة العامية « رجع رجعة الأعادى » .

وبعد فهذا باب يتطلب المزيد من البحث ، وفى دراسته — بلاريب — نفع للادب والتاريخ .

(حلوان) محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

إدارة البلديات العامة — عطاءات

تقبل العطاءات بمجلس بلدى كفر الزيات عن توريد شعير وتبن وفول لمؤونة الحيوانات عام ١٩٤٨ وقد تحدد ظهر يوم ١٢ / ٦ سنة ١٩٤٨ آخر ميعاد لفتح المظاريف بالمجلس وتطلب الشروط من المجلس على عرضحال تمغة فئة ٣٠ مليم نظير دفع الثمن وقدره ١٠٠ مليم ٩٤٦١